تفسير

البحر المحيط

لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي
المتوفى سنة ٧٤٥ هـ

دراسة وتحقيق وتعليق

الشيخ عادل أحمد عبد الموجود — الشيخ علي محمد معوض

شارك في تحقيقه

الدكتور زكريا عبد المجيد النوقي
أستاذ اللغة العربية بجامعة الأزهر

الدكتور أحمد النجولي الجمل
أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

قرظه

الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي
أستاذ التفسير وعلوم القرآن كلية أصول الدين جامعة الأزهر

الجزء الثالث

المحتوى

آل عمران: ١٠٢ ـ المائدة: ٨١

دار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب : ١١/٩٤٢٤ - تلكس : Nasher 41245 Le -
هاتف : ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس : ٠٠/١٢١٢/٤٧٨١٣٧٣

انتهى ، والظاهر قول الجمهور : أن الضمير يعود على عيسى ، بجعل الضمائر كلها كشيء واحد ، فلا تختلف ، والمعنى صحيح بليغ ، وانتصاب ﴿ يقيناً ﴾ على أنه مصدر في موضع الحال من فاعل ﴿ قتلوه ﴾ أي : متيقنين أنه عيسى ، كما ادعوا ذلك في قولهم ﴿ إنا قتلنا المسيح ﴾ النساء [١٥٧] قاله السدي ، أو نعت لمصدر محذوف ، أي : قتلاً يقيناً جوزه الزمخشري[(١)]، وقال الحسن : وما قتلوه حقاً انتهى ، فانتصابه على أنه مؤكد لمضمون الجملة المنفية ، كقولك : وما قتلوه حقاً ، أي : حق انتفاء قتله حقاً ، وما حكي عن ابن الأنباري : أنه في الكلام تقديماً وتأخيراً ، وأن ﴿ يقيناً ﴾ منصوب بـ ﴿ رفعه الله إليه ﴾ والمعنى : بل رفعه الله إليه يقيناً ، فلعله لا يصح عنه ، وقد نص الخليل على أن ذلك خطأ ، لأنه لا يعمل ما بعد بل في ما قبلها .

﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾

﴿ بل رفعه الله إليه ﴾ هذا إبطال لما ادعوه من قتله وصلبه ، وهو حي في السماء الثانية ، على ما صح عن الرسول ـ ﷺ ـ في حديث المعراج ، وهو هنالك مقيم حتى ينزله الله إلى الأرض ، لقتل الدجال ، وليملأها عدلاً كما ملئت جوراً ، ويحيا فيها أربعين سنة ، ثم يموت ، كما تموت البشر ، وقال قتادة : رفع الله عيسى إليه ، فكساه الريش ، وألبسه النور ، وقطع عنه المطعم والمشرب ، فصار مع الملائكة ، فهو معهم حول العرش ، فصار إنسياً ملكياً سماوياً أرضياً ، والضمير في ﴿ إليه ﴾ عائد إلى الله تعالى على حذف التقدير : إلى سمائه ، وقد جاء ﴿ ورافعك إليّ ﴾ ، وقيل ﴿ إليّ ﴾ حيث لا حكم فيه إلا له ، ولا يوجه الدعاء إلا نحوه ، وهو راجع إلى الأول ، وقال أبو عبد الله الرازي : أعلم الله تعالى عقيب ذكره : أنه وصل إلى عيسى أنواع من البلايا ، أنه رفعه إليه ، فدل أن رفعه إليه أعظم في إيصال الثواب من الجنة ، ومن كل ما فيها من اللذات الجسمانية ، وهذه الآية تفتح عليك باب معرفة السعادات الروحانية انتهى ، وفيه نحو من كلام المتفلسفة ، ﴿ وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ قال أبو عبد الله الرازي[(٢)] : المراد من المعزة كمال القدرة ، ومن الحكمة كمال العلم ، فنبه بهذا على أن رفع عيسى ـ عليه السلام ـ من الدنيا إلى السموات ، وإن كان كالمتعذر على البشر ، لكن لا تعذر فيه بالنسبة إلى قدرتي وحكمتي انتهى ، وقال غيره : ﴿ عزيزاً ﴾ أي : قوياً بالنقمة من اليهود ، فسلط عليهم بطرس الرومي ، فقتل منه مقتلة عظيمة ﴿ حكيماً ﴾ حكم عليهم باللعنة والغضب ، وقيل ﴿ عزيزاً ﴾ أي : لا يغالب ، لأن اليهود حاولت بعيسى ـ عليه السلام ـ أمراً ، وأراد الله خلافه ﴿ حكيماً ﴾ أي : واضع الأشياء مواضعها ، فمن حكمته تخليصه من اليهود ، ورفعه إلى السماء لما يريد وتقتضيه حكمته تعالى ، وقال وهب بن منبه : أوحى الله تعالى إلى عيسى على رأس ثلاثين سنة ، ثم رفعه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، فكانت نبوته ثلاث سنين ، وقيل : بعث الله جبريل ـ عليه السلام ـ فأدخله خوخة فيها روزنة في سقفها ، فرفعه الله تعالى إلى السماء من تلك الروزنة .

﴿ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ﴿١٥٩﴾ ﴾

﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ ﴿ إنّ ﴾ هنا نافية ، والمخبر عنه محذوف ، قامت صفته مقامه ، التقدير : وما أحد من أهل الكتاب ، كما حذف في قوله ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ والمعنى : وما من اليهود ، وقوله ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ أي : وما أحد منا إلا له مقام ، وما أحد منكم إلا واردها ، قال الزجاج : وحذف أحد ، لأنه

---

(١) انظر المصدر نفسه .

(٢) انظر الرازي ١١/٨٢ .

مطلوب في كل نفي يدخله الاستثناء ، نحو : ما قام إلا زيد معناه : ما قام أحد إلا زيد ، وقال الزمخشري(١) ﴿ ليؤمنن به ﴾ جملة قسمية ، واقعة صفة لموصوف محذوف تقديره : وإن من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به ، ونحوه ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ الصافات [١٦٤] ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ مريم [٧١] والمعنى : وما من اليهود أحد إلا ليؤمنن به انتهى ، وهو غلط فاحش ، إذ زعم أن ﴿ ليؤمنن به ﴾ جملة قسمية واقعة صفة لموصوف محذوف ، إلى آخره ، وصفة أحد المحذوف إنما هو الجار والمجرور ، وهو من أهل الكتاب ، والتقدير : كما ذكرناه : وإن أحد من أهل الكتاب ، وأمّا قوله ﴿ ليؤمنن به ﴾ فليست صفة لموصوف ، ولا هي جملة قسمية ، كما زعم ، إنما هي جملة جواب القسم ، والقسم محذوف ، والقسم وجوابه في موضع رفع خبر المبتدأ الذي هو أحد المحذوف ، إذ لا ينتظم من أحد والمجرور إسناد ، لأنه لا يفيد ، وإنما ينتظم الإسناد بالجملة القسمية ، وجوابها فذلك هو محط الفائدة ، وكذلك أيضاً الخبر هو ﴿ إلا له مقام ﴾ وكذلك ﴿ إلا واردها ﴾ إذ لا ينتظم مما قبل إلا تركيب إسنادي ، والظاهر أن الضميرين في ﴿ به ﴾ و﴿ موته ﴾ عائدان على عيسى ، وهو سياق الكلام ، والمعنى : من أهل الكتاب الذين يكونون في زمان نزوله ، روى : أنه ينزل من السماء في آخر الزمان ، فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به ، حتى تكون الملة واحدة ، وهي ملة الإسلام ، قاله ابن عباس والحسن وأبو مالك(٢)، وقال ابن عباس أيضاً وعكرمة والضحاك والحسن أيضاً ، ومجاهد وغيرهم : الضمير في ﴿ به ﴾ لعيسى ، وفي ﴿ موته ﴾ لكتابي ، وقالوا : وليس يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى ، ويعلم أنه نبي ، ولكن عند المعاينة للموت ، فهو إيمان لا ينفعه كما لم ينفع فرعون إيمانه وقت المعاينة(٣) ، وبدأ بما يشبه هذا القول الزمخشري (٤)، قال : والمعنى : ما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن قبل موته بعيسى ، وبأنه عبد الله ورسوله ، يعني إذا عاين قبل أن تزهق روحه ، حين لا ينفعه إيمانه لانقطاع وقت التكليف ، ثم حكى عن شهر بن حوشب والحجاج : حكاية فيها طول ، يمس بالتفسير منها ، أن اليهودي إذا حضره الموت ضربت الملائكة دبره ووجهه ، وقالوا : يا عدوّ الله ، أتاك عيسى نبياً ، فكذبت به ، فيقول : آمنت أنه نبي ، وتقول للنصراني : أتاك عيسى نبياً فزعمت أنه الله ، أو ابن الله ، فيقول : آمنت أنه عبد الله ورسوله ، حيث لا ينفعه إيمانه ، وعن ابن عباس : أنه فسره كذلك ، فقال له عكرمة : فإن أتاه رجل فضرب عنقه ، قال : لا تخرج نفسه حتى يحرك بها شفتيه ، قال : وإن خرجت فوق بيت ، أو احترق ، أو أكله سبع ، قال : يتكلم بها في الهوى ولا تخرج روحه حتى يؤمن به(٥)، ويدل عليه قراءة أبيّ ﴿ إلا ليؤمنُنَّ به قبل موتهم ﴾ بضم النون على معنى : وإن منهم أحد إلا سيؤمنون به قبل موتهم ، لأن أحداً يصلح للجمع فإن قلت : فما فائدة الإخبار بإيمانهم بعيسى قبل موتهم قلت : فائدته الوعيد ، وليكن علمهم بأنهم لا بد لهم من الإيمان به عن قريب عند المعاينة ، وأن ذلك لا ينفعهم بعثاً لهم وتنبيهاً على معالجة الإيمان به في أوان الانتفاع به ، وليكون إلزاماً للحجة لهم ، وكذلك قوله ﴿ ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ يشهد على اليهود بأنهم كذبوه ، وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله انتهى كلامه ، وقال أيضاً : ويجوز أن يريد أنه لا يبقى أحد من جميع أهل الكتاب إلا ليؤمنن به ، على أن الله يحييهم في قبورهم في ذلك الزمان ، ويعلمهم نزوله وما نزل له ، ويؤمنون به حين لا ينفعهم إيمانهم انتهى ، وقال عكرمة : الضمير في ﴿ به ﴾ لمحمد عليه الصلاة والسلام ، وفي ﴿ موته ﴾ للكتابي ، قال : وليس يخرج يهودي ولا نصراني من الدنيا ، حتى يؤمن بمحمد ولو غرق ، أو سقط عليه

---

(١) انظر الكشاف ١/٥٨٨ .

(٢) انظر البغوي ١/٤٩٧ والرازي ١١/٨٢ ، ٨٣ .

(٣) انظر القرطبي ٦/١٠/١١ ط وزارة الثقافة بالقاهرة سنة ١٩٦٧ م .

(٤) انظر الكشاف ١/٥٨٨ .

(٥) انظر القرطبى ٦/١١ والدر ٢/٢٤١ وابن كثير ١/٥٧٧ والبغوي ١/٥١٥ .

جدار ، فإنه يؤمن في ذلك الوقت ، وقيل : يعود في ﴿ به ﴾ على الله ، وفي ﴿ موته ﴾ على أحد المقدّر ، قال ابن زيد : إذا نزل عيسى - عليه السلام - لقتل الدجال لم يبق يهودي ولا نصراني إلا آمن بالله حين يرون قتل الدجال ، وتصير الأمم كلها واحدة على ملة الإسلام ، ويعزى هذا القول أيضاً إلى ابن عباس والحسن وقتادة ، وقال العباس بن غزوان ﴿ وإنّ من أهل الكتاب ﴾ بتشديد النون وهي قراءة عسرة التخريج ﴿ ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ أي : شهيداً على أهل الكتاب على اليهود بتكذيبهم إياه ، وطعنهم فيه ، وعلى النصارى بجعلهم إياه إلّهاً مع الله ، أو ابناً له ، والضمير في ﴿ يكون ﴾ لعيسى ، وقال عكرمة لمحمد - ﷺ - قيل : وتضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة والبديع ، فمنها التجنيس المغاير في ﴿ يخادعون ﴾ و ﴿ خادعهم ﴾ و ﴿ شكرتم ﴾ و ﴿ شاكراً ﴾ ، والمماثل في ﴿ وإذا قاموا ﴾ والتكرار في اسم الله ، وفي ﴿ هؤلاء ﴾ و ﴿ هؤلاء ﴾ وفي ﴿ ويرون ﴾ و ﴿ يريدون ﴾ وفي ﴿ الكافرين ﴾ و ﴿ الكافرين ﴾ وفي ﴿ أهل الكتاب ﴾ و ﴿ كتاباً ﴾ وفي ﴿ بميثاقهم ﴾ و ﴿ ميثاقاً ﴾ ، والطباق في ﴿ الكافرين ﴾ و ﴿ المؤمنين ﴾ وفي ﴿ إن تبدوا ﴾ ﴿ أو تخفوه ﴾ وفي ﴿ نؤمن ﴾ و ﴿ نكفر ﴾ ، والاختصاص في ﴿ إلى الصلاة ﴾ و ﴿ في الدرك الأسفل ﴾ ، وفي الجهر بالسوء ، والإشارة(١) في مواضع ، الاستعارة في ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ استعار اسم الخداع للمجازاة ، وفي ﴿ سبيلاً ﴾ وفي ﴿ سلطاناً ﴾ لقيام الحجة ، و ﴿ الدرك الأسفل ﴾ لانخفاض طبقاتهم في النار ، و ﴿ اعتصموا ﴾ للالتجاء ، وفي ﴿ أن يفرقوا ﴾ وفي ﴿ لم يفرّقوا ﴾ وهو حقيقة في الأجسام استعير للمعاني ، وفي ﴿ سلطاناً ﴾ استعير للحجة ، وفي ﴿ غلف ﴾ و ﴿ بل طبع الله ﴾ ، وزيادة الحرف لمعنى في ﴿ فبما نقضهم ﴾ ، وإسناد الفعل إلى غير فاعله في ﴿ فأخذتهم الصاعقة ﴾ و ﴿ جاءتهم البينات ﴾ وإلى الراضي به ، وفي ﴿ وقتلهم الأنبياء ﴾ وفي ﴿ وقولهم على مريم بهتاناً ﴾ ﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح ﴾ ، وحسن النسق(٢) في ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم ﴾ والمعاطيف عليه ، حيث نسقت بالواو التي تدل على الجميع فقط ، وبين هذه الأشياء أعصار متباعدة ، فشرك أوائلهم وأواخرهم لعمل أولئك ورضا هؤلاء ، وإطلاق اسم كل على بعض ، وفي ﴿ كفرهم بآيات الله ﴾ وهو القرآن والإنجيل ، ولم يكفروا بشيء من الكتب إلا بهما ، وفي ﴿ قولهم إنا قتلنا ﴾ ولم يقل ذلك إلا بعضهم ، والتعريض في ﴿ رسول الله ﴾ إذا قلنا إنه من كلامهم ، والتوجيه في ﴿ غلف ﴾ من احتمال المصدر جمع غلاف ، أو جمع أغلف ، وعود الضمير على غير مذكور ، وهو في ﴿ ليؤمنن به قبل موته ﴾ على من جعلها لغير عيسى ، والنقل من صيغة فاعل إلى فعيل في ﴿ شهيد ﴾ ، والحذف في مواضع .

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾
وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾
لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ
وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ

---

(١) وعرفها السيوطي في نظم البديع بالإتيان بكلام قليل ذي معان جمة ، وانظر الفوائد المشوق ص ١٢٥ .

(٢) ويسمى « التنسيق » وهو من محاسن الكلام . وهو أن يجيء المتكلم بالكلمات من النثر أو الأبيات من الشعر متتاليات ، متلاحمات تلاحماً شديداً مستحسناً لا معيباً ، ولا مستهجناً ، وتكون مفرداتها وجملها متسقة متوالية ، إذا أفرد منها البيت قام بنفسه ، واستقل معناه بلفظه شرح الكافية (٢٤٩) .